السماء الثانية

خطاب ألقته جوليا طعمه رئيسة مدرسة البنات الكبرى لجمعية المقاصد الخيرية وقد كانت اعدته الى حفلة جمعية تهذيب الفتاة السورية واغا الحراف صعبها يومئذ حال دون تشنيف الاذان به على انها جددت ألقته في حفلي جمعية الخدمة الوطنية في صيدا وتهذيب الفتاة في الشوفات

اننا وان كنا يا سادتي نسكن بيوتاً مبنية من حجارة صلبة فوق اكمة في الجبال متانة ومناعة، ليست من الشعر كبيوت العرب تنقل بها عند كل شروق شمس من قلة الى قلة . ومن بقعة خصيبة الى اخصب . اننا وان كنا نرتدي اثواباً نحيفة وعلى ثمينة تدل على اننا في موقف يزينه الهدو والسكينة وليس علينا من الاثواب الضخمة المتينة التي يلبسها المسافر في سيره ولا البرانيط التي تشبه الصوامع في حجمها كي تحميه من الشمس المشرقة — ولا مناطقاً جلدية نشد بها اجر يتنا ، واحذيتنا خصورنا وزواو بدنا ولا شيئاً يدل على اننا متأهبون للسفر، فنحن ساكنون مستقرون انما سياحتنا هي روحية لا جسدية . اولها الازل واخرها الخلود .

نعجز عن تحديد الازل وليس ما يفهمه الانسان بالازل الا ما ترجع به ذاكرته لحين ولادته في هذا العالم او بالحري الى بعد انتهائه من دور الطفولية

واما عالم الخلود فهو العالم الاعلى — جنان الخلود — دار السعادة — مسكن الابرار — سماء السموات — السماء التي تتوق اليها كل نفس شريفة — السماء التي وان عجز العالم عن تحديدها الحقيقي فقد وصفها الرسل والانبياء و بعض العلماء والحكماء وصفاً شوقنا نحن الاحياء المعتقدين بخلود النفس الى المسير اليها والولوع بها وتعليل الامال ببلوغها فهي غرضنا الاهم ومحجتنا القصوى

اما الطرق الموصلة اليها فهي عديدة متعددة وقد اختلف البشر في اختيار هذه الطرق وكل يزعم انه هو المصيب وطريقه الاصح وغيره الضال عن طريق الهدى . واذ كنت من الذين يتوقون الى السفر لذلك العالم غير المنظور — الى ما وراء هذا الكون — الى الله — عولت النفس على ايجاد طريقة حسنى توافقني و يرتاح اليها ضميري و بعد الجهد الجهيد ساقتني مخيلتي الى طريق تتألف من ثلاث مراحل ليست هي الا عبارة عن شبه جيز يمثل محجتنا القصوى السماء الابدية اسماً ومسمى . فمن وفق بي واراد السير معي فليرافقني ولو مرحلة واحدة على سبيل التجربة فان راقه المسير انتهيت واياه الى ما تطمح اليه نفسه ونفسي والا عكف راجعاً واختار لفتاته سبيلاً يلائم ذوقه واميالها

اهم ما علينا في هذه الحياة الدنيا هو ان نعرف كيف نعيش سعداء . وقد صرح بعض

الفلاسفة ان السعادة لا تتوقف على احوالنا الخارجية بل على نفوسنا . نعم لا احد ينكر ان مزعجات الحياة وتقلباتها المؤلمة هي كثيرة ولكن للانسان اليد الطولى في حدوثها ومعظم بلابلنا ومصائبنا ناتج عما نرتكبه من الذنوب والسقطات عمداً او سهواً . ولا بد لنا في طلب السعادة من تهذيب وتدريب اجسادنا ونفوسنا وعقولنا على السواء — لا بد من التهذيب الذي يبتدىء في البيت ثم في المدرسة وبكمل في عالم العمل . هذه اهم محطات الحياة . هذه هي الرحلات الثلاث التي قصدت البحث فيها والتفتيش عن وسائل تكفل للانسان سعادة دائمة في كل منها فيتخيل له انه يسكن سماء دائمة لا ارضاً متقلبة

. . المرحلة الاولى او السماء الاولى قد عنيت بها البيت السعيد . سبقت فتكلمت عنها ملياً في خطاب القيته في مدينة طرابلس فمن اراد الوقوف عليها فليراجعه في محاني المتعطف والحسناء . واما السماء الثانية وهي موضوع كلامي الان فهي المدرسة — منبت الامة ودعامة حياتها — منشأ الاحداث ومجمع أنسهم — مرمى الصبوة ومسرح الفتيان فيها يزهر الشباب وتثمر القوة — فيها تدبيقظ النفوس وتقوم الاخلاق — فيها ينمو العقل وتغذى العواطف بشريف المبادىء . منها يخرج رجل الامة الامين الحي . والمرأة العاقلة الفاضلة — منها يخرج العالم الحكيم . والفتاة الرزينة المهذبة — منها يخرج المكتشف والمخترع والوالدة المثقفة الصالحة — هذه هي المدرسة التي اعني بها :

— السماء الثانية —

سادتي انا اعلم كل العلم انكم تكرهون المواضيع المبتذلة القديمة وتفضلون ان تسمعوا مني شيئاً جديداً في هذا المساء ولكن صدقوني باني افرغت جهدي بالتفتيش عن ذلك المبتكر الجديد فغابت شمس لا بل شموس قبل ان اجده

وماذا عساني ان آخذ موضوعاً واسم جمعيتنا هذه « تهذيب الفتاة السورية » يدعوني الى اختيار موضوع يناسب غايتها و يثبت اهميتها — ماذا عساني ان انكم وشغلي الشاغل وعملي الدائم ضمن جدران المدرسة لا خبرة لي تذكر في هذه الحياة ولا مارست مهنة سوى العلم والتعليم . ومع هذا حاشا لي ان ادعي المعرفة الكاملة واقف بينكم امس شرائع جديدة لمدارسنا وانظم لها لوائح مرتبة كي تسير عليها كلا فان ذلك يرد الينا من ذوي العقول الصقيلة والآراء السديدة ، وممن لهم خبرة ولهتها الاجيال الطوال في بلادهم ، لا السنين القلائل في بلادنا . اني وان كنت قد درست بعض الاطراف من هذا الفن وتمرنت على بعضه لست اثقل عليكم بتفاصيله ، المهلة فان هذا يستدعي مقاماً غير مقام الخطابة

الا اني احب ان اصور لكم صورة معنوية للمدرسة التي نحن باحتياج شديد اليها. يعرف الجميع ان التربية هي اساس مستقبل البشر وسعادتهم . قال شكسبير : السعادة والشقاء في الحياة هما نتيجة التربية » ولهذا اصبحت المدارس من اهم المسائل الاجتماعية والاساس المتين لكل هيئة ادبية . ولم يبق ادنى ريب في ان العلوم الحديثة ومدارسها قد رفعت شأن الامم الحاضرة في العمران . فشيدت البنايات الكبيرة لضم ابناء الوطن وبنائه . وازداد عدد المدارس كثيراً في بلادنا وخصوصاً في هذه الايام الاخيرة . ومع هذا فاننا نرى خيبة التعليم ظاهرة للعيان . والمدارس لم تأت بما كان يرجى منها وهذه مسئلة المسائل اليوم هذا هو المشكل الذي يجب ان ينتبه اليه عقلاؤنا وينظر الى حله كبار علمائنا

يقوم المصلحون فيبادرون بوجوب مساواة الغني بالفقير . وتعزيز تجارة البلاد . وزيادة قوة الجيش . وبناء الاساطيل والمدرعات . ولسنا نرى اثراً في مباحثهم لما يختص بالكمالات الروحية وبتهذيب النفس وترقية الشعور مما يوجد هذه الحياة الحقيقية السامية التي لا زهر ولا ثمر اذا لم يكن لها من العقل والضمير والنفس دعائم قوية فيتساوى الغني بالفقير ويرتقي الجيش وتعزز التجارة وتبنى الاساطيل والمدرعات . الحياة لا تقوم بكثرة تناول الادوية اذ ليست العلاجات من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا ما ادت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسئلة الاجتماعية الا جعل الافراد بحالة يستطيع فيها كل واحد منهم ان يقوم بمعالجة نفسه . وان يرتقي بجده وعمله — لا تقوم بلادنا الا اذا اهتم المصلحون بتربية القوة الشخصية اكثر من الاهتمام بتعظيم السلطة الاجتماعية ومن يكفل لنا اتمام امنيتنا هذه وممن نرجو الاصلاح الا من المدرسة . واي مدرسة ؟ تلك التي غرض القائمين بها تعليم الناشئة لا ليكونوا علماء فان ذلك لا يجعلهم سعداء بل تعليمهم ليكونوا متمدنين عارفين بالامور العلية والعلمية معاً عالمين باحوال الوطن و بالمقصود من تعليمهم وتطبيق قوانين الدروس والسلوك بما يناسب حالة البلاد وطبيعتها . وهل يتم ذلك الا بالمدارس الوطنية ؟ لا اقول ذلك لعدم استحساني المدارس الاجنبية كلا فان هيئتنا هذه المتنظمة الان احسن برهان ينطق بفضلهم وما لهم من الايادي البيضاء والاحسان في ترقية بلادنا . ولكن هنا مسئلة وهي هل ارتقينا الى الدرجة المطلوبة او هل يمكن لنا ان نعد يوماً بين الامم الحية الراقية في العمران اذا بقينا نميز بيّ مسا نحن عليه الان ؟ اتمامة بلادنا تعدد الطوائف والاديان واختلاف المذاهب والمشرب والعادات فنوادي المصلحون بوجوب انشاء المدارس الوطنية لتبث الحية بروؤس رؤساء تلك

الطوائف والاديان وانشأ كل منهم مدرسة باسمه او باسم طائفته فيزداد التحصب وتتشتت افرادنا . وهل يصح لنا اذا اعتبرنا الوطنية بمعناها الحقيقي ان ندعو مثل هذه المدارس وطنية ؟

سادتي — انتا بحاجة كلية الى مدرسة تكوّن من عناصرنا المختلفة الاجناس والاخلاق والاديان امة واحدة ودولة واحدة . نحن بحاجة الى مدرسة تعلم الاحداث من صغرهم احترام واحترام المذاهب التمسك بها ابناء وطننا ولو كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا وتقاليدنا وطقوسنا على خط مستقيم

ففي يا ترى نفهم باننا جميعنا من جبلة واحدة خليقة اله واحد وما الجامع والكنيسة والمجمع الا بيوتاً صنعتها يد الانسان لتقدم فيها الصلوات التي اذا قدمت باخلاص لا يمكن ان تتجاوز سطوح تلك المعابد حتى يمزجها الهواء الكروي الذي اعطي لجميع الناس على حد سواء فتتصاعد في الاثير الجوي الى ان تصل الى العرش السماوي كبخور عطر ورائحة ذكية امام الاله العظيم

ففي مثل هذه المدرسة تسير الاحداث على اختلاف الملل والمذاهب كالكواكب والسيارات في مناطقها فانها لا تتصادم بل تسير موائتلفات مفترقات لا تتساقط منها الشهب ولا تتناثر اجرامها في دورانها فتعم السعادة فوق رؤوس اولئك التلامذة فينشأ الموسوي والمسيحي والمحمدي على التآلف والوئام على التفاهم والاتحاد والفضيلة فلا يلبثون ان يخرجوا من تلك الدائرة الصغيرة حتى يكونوا شعباً واحداً سعيداً وهيئة اجتماعية راقية فتتوحد كلمتنا ويجتمع شمل دولتنا . كلنا نفتش عن السعادة والسلام فلماذا لا نختصر الطريق ونتشدد هما ضمن مدارسنا!

نحتاج الى مدرسة يكون غرض القائمين بها تعليم الانسان كيف يقدر على تحصيل عيشه بنفسه، تلك التي تربي العزيمة والارادة والثبات وتقوي الجسم كما تربي العقل حتى يشبّ الشاب معتقداً بان الرجل اذا سقط يجب ان يستقط على قدميه . حتى تشب الفتاة عالمة ان مسؤوليتها تتجاوز حد الزينة والدلال ، تلك التي تشرّب الاحداث ان الاعتماد على النفس وقوة الارادة هما اهم اخلاق للنفس الابية وليس بدونهما فلاح في الحياة فلن الكسلان والجبان والمتقلب والمتردد ومن يتوكأ ابداً على غيره لا نصيب له في هذه الدنيا الا ما كان يسيراً حقيراً .

تلك التي تعلمهم ان السعادة لا تقوم الا بنفسي اولئك الذين يتحكمون من التغلب على

مناحب الحياة المادية والادبية تطلباً حقيقياً هذه هي المدرسة التي نحن باحتياج اليها · تلك التي غرض القائمين بها تربية جميع الملكات الانسانية عَلَى نسبة واحدة حتى يكون الانسان قادراً عَلَى الوصول الى الغرض المقصود من الحياة فيمتنون بتربية النسبة بين الجسم والروح وربطهما معاً ، بتقوية السلطة الروحية عَلَى الجسم فيكون مثالاً لمحاسن الروح والظاهر نموذجاً للباطن · ويحصل ذلك بتعليم الناشئة الحرص عَلَى الصحة والتقشف بالعمل وتمرين حواسهم الجسمية حتى يقوى قبولها للآثار الظاهرية وتعويد اعضائهم عَلَى سرعة الحركة ·

اراني دخلت بالموضوع من حيث لا اريد وتكلمت عنه بنغمة عمومية مع ان غايتي الاصلية هي البحث في المدرسة التي تناسب حالة فتاتنا السورية العثمانية اليوم والكلام فيما يختص بتهذيبها اولاً اذ بتهذيبها يصلح الشرق اجمع ولهذا اعود واستهل كلامي الثاني بما استهل به صاحب المراقب قصيدته في السنة الماضية في حفلة تهذيب الفتاة

اقول لمن يبغون للشرق ان يرقى : بغير ذوات الخدر لن تصلحوا الشرق
اذا الجود لم تعمد لاصلاحه يداً يظل بنوه الدهر في جهلهم غرقى
هي المهيع الهادي الى قمة العلى فلا تنهجوا للحق من غيره طرقا

نعم لا يصلح الشرق اذا لم تهذب نساؤه ولا سبيل لتهذيبهن الا عن طريق المدارس الصالحة · قد تغير الزمان وتغيرنا نحن معه والحمد لله واصبح الوالدون يهتمون كثيراً في تعليم بناتهم ويبذلون النفس والنفيس رواتباً لمدارسهن ولكن قليلون هم الذين يتقنون المدرسة التي تكفل سعادة الفتاة مدة التعليم وبعدها ·

رأيت حيدة اليوم تفاخر بابنتها ومدرستها التي سهلت لها اتقان اللغات الاجنبية وبعض الفنون الكمالية كالعزف عَلَى البيانو والتصوير والتطريز والتخريم وتتكلم باتقان تام اللغات الاجنبية وتعجل البارحة في الامور الذوقية والزينة الظاهرية والقيام باتقان الازياء في مثل ترتيب الشعر وجدله وعقصه عَلَى صور واشكال —

ولكن هل هن سعيدات او هل يمكن ان يصرن زوجات صالحات وامهات حكيمات ؟ لست انكر ان بعض الفتيات قد اشتهرن في مواطنهن عَلَى الدرس والاجتهاد وترقية نفوسهن في علوم الاداب ومع هذا فاننا نرى مواطن الانتقاد تنقض عليهن كما تنقض عَلَى المتصرفات في الزي واللباس · ولماذا ؟

لو كنت اميل الى الانتقاد لابنت الوفا من سقطاتنا نحن المتعلمات ولكني افضل تلافي الاسباب وانتقادها عَلَى الوقوف والندب فوق مواقع الخطإ والاغلاط ·

لا انتقد مدارس البنات وارمي حجارة في الابار التي طالما روت ظمأي وشفت غليلاً لكثيرات من اخواتي النساء ولكنني انظر الى كل هذه المدارس نظرة عمومية « لاني قد درست أكثرها » وانتقي الحسن والمفيد من كل منها واصور بريشتي الضعيفة صورة المدرسة التي نحن بشديد الحاجة اليها والتي تكفل سعادة الحياة لنا ولوطننا العزيز .

سيدتي لا لزوم للقول بأن المدارس الداخلية تفضل كثيراً على الخارجية من حيث حسن التربية لان بعض الامهات قد اسيئت من الاصل تربيتهن فلا يمنحن كريماتهن الا ما يماثل اخلاقهن فهن كثيرات الكلام والثرثرة بلا احتشام امام البنات اللواتي تفتقس نفوسهن المتيقظة كل شيء من مفاسد ذلك ورديئه فيهدمن (اي الامهات) في اسبوع واحد ما تبنيه المدارس الخارجية في سنوات حتى وان كانت الامهات مهذبات مستوفيات المعارف فقد تنقصهن الاختبارات والوسائل لغرسها

شرط واحد فقط يفرض على المدرسة التي اعنيها هو حسن الاختيار واخذ الحذر خصوصاً في انتقاء المهذبات المعلمات اذ بهن موت المدرسة وحياتها — بحسن اختيار المعلمات يتيسر لنا مدرسة تعلم فتاتنا الشرقية بطريقة تحرك من شغفها بلغتها ومن فخارها بانها عضو لامة عظيمة ومن سرورها بكونها عربية عثمانية — بالمعلمة تحيا المدرسة التي تشرب نفوس البنات بالقدوة العملية الحسنة والسلوك الحميد الذي بدونه تكون اعظم اصول التربية والتعليم كلا شيء، لان المربية تؤثر بكونها لا بقولها ، بفعلها لا بامرها — بالمعلمة الصالحة تتم المدرسة التي تهيء فتياتنا لسعادة الحياة والقيام بعمل يذكر فيها .

ايتها الوالدة ! في مثل هذه المدرسة ضعي مطمح امالك وفي احضانها اودعي حشاشة فؤادك فترجع اليك ابنتك عند انتهاء مدة تعليمها كعروس خارجة من خدرها قد كملت رأسها بتاج الحكمة والعرفان ولكنها بعيدة عن الادعاء والخيلاء ، تنظرين الى عينيها فترين فيهما شعاع الابتهاج ونظرات الحنو العميق ولكنهما يجلان عن الحفة والطيش ونظرات الضعف عند التجربة ، تنظرين الى ملامح وجهها فترين هناك نوراً يزجمعاه الحياء وعنفوان الشباب ولكنها لا تخمر الا اتضاعاً ولا تخفر الا بالفضيلة ، تتمهين في ثوبها فتعجبين بجمال لونه وحسن حشمته مع ان لا لون له الا ما كان ساكتاً هادئاً ولا زينة فيه الا النظافة والذوق السليم ، تسمعين كلامها فتسحرين برخامة الصوت وعذوبة المنطق وذلك لان تحرك اوتاره مقاطع الحروف الابجدية من لغتنا العربية لا مزيج اخلاط من لغات اجنبية — هذا هو مثال الفتاة لا بل الملاك الذي تخرجه لنا المدرسة الصالحة لا بل السماء الثانية .

صرّح بعض الفلاسفة ان المعلم هو المدرسة والمدرسة هي المعلمة ولهذا لوجعاليك كلامي الاخير يا اختي ! ولا غرو اذا شعرت بجاذب قوي نحوك او اذا حدثتك بصراحة وحرية وكشفت لك الحجاب عن اسرار طالما حجبتها عن كثيرين فانت اختي في الطبيعة واختي في الوطن واختي في الوظيفة وقد فعلمت واياك شوطاً بعيداً من الحياة سوية ولذلك اعرفك كما انت

ألست انت التي تحجلين عندما يلقبك القوم بمعلمة ؟ ألست انت التي تنأفين حتى وتشئين عندما يستحف بك ذوولك ولا تجدين من يقدرك حق قدرك ازاء ما تقاسينه في خدمة الصغار وتثقيف وتهذيب اولاد الوطن ؟ ألست انت التي تضربين عرض الحائط بالدريهمات القليلة التي تاخذينها لقاء شهرك الطويل مع سمع المقول وبكم الاذعان وغلاظ الطباع ؟ ألست انت الفاضلة قاضي الاولاد شاق حاله ورباية المعزى احسن من رباية الاولاد ؟ فاسمعي اذاً . قد اعتدت واياك على الانتقاد بملاءة الاوهام الباطلة ، اعتدنا ان لا ننظر في الامور الى ما وراءها ، لا نرى في الحياة غير ظواهر الحوادث . قصر نظرنا فيشنا ، جمدت عواطفنا فضعرنا . حارت قوانا فتألمت اعصابنا .

أكدي يا اختي ان هذه الدعوة التي دعيت لاجلها هي دعوة الهية فاقبليها بالنجدة والاكرام . ان هذه المهنة هي اشرف مهنة بشرية فاقبليها بكل ثبات واحترام .

يقف الملك على عرشه الارضي ويبده صولجان القوة مسلطاً على الاجساد وممالك الارض . واما انت فتقفين بموضعك الوضيع وبيدك صولجان التهذيب تسلطين على القلوب وممالك عالم النفس فتفرضين اعلام الحقيقة والحب فوق صروحها . يقف التاجر على متن البحار وعقاب الجبال يرقب هبوط الاسعار وارتفاعها وخفقان قلبه يهبط ويرتفع معها وكل ما يلاقي جزاء ذلك الخفقان والهبوط والارتفاع ليس الا بعض المادة من ذلك الاصفر الرنان . واما انت فتخفقين بين جدران غرف الدرس الفارغة والى اناملك عقد من خيلت صفيرات تبشين اليهن من بين سفنك الحياة وتبثين في قلوبهن الصغيرة المبادئ السامية فتنالين جزاءك لمعان الابتهاج من تلك الاعين الطاهرة وحباً انقى من الذهب الابريز تصوغه لك تلك القلوب الملائكية ، وهل تطلبين جزاء آخر لاتعابك واي مال يقدر ان يشتري لك ذلك الحب الحقيقي وتلك الشعائر الخالصة فأنك لا تجدينها الا ضمن جدران السماء الثانية اي المدرسة

يقضي العالم الفيلسوف زمانه بالبحث والتنقيب يجهد ليله ونهاره في الغوص وانكد وكل ذلك ابتغاء تاييد رأي او حكمة استنبطها ولكنه يموت قبل ان ينال امنيته وقلما عاثر